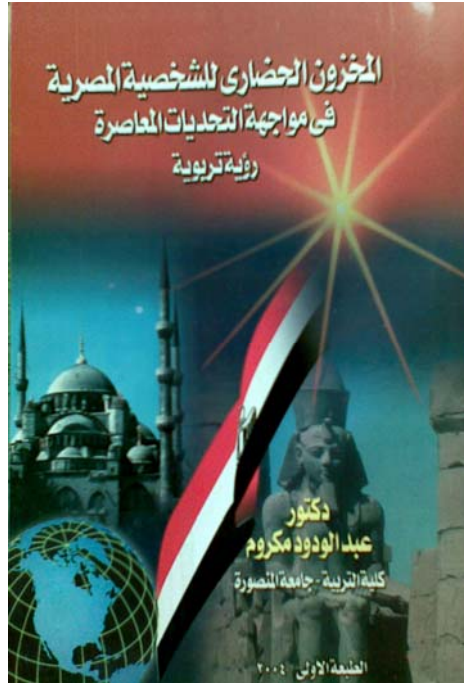


المخزون الحضارى للشخصية المصرية فى مواجهة التحديات المعاصرة "رؤية تربوية"



ملخص البحث

هدفت الدراسة إلى التعرف على مجموعة الركائز والمضامين التى تحدد هوية مصر وسمات الشخصية المصرية عبر التاريخ ، ومن زاوية أخرى محاولة رسم خريطة لـ " بنية المخزون الحضارى فى شخصية مصر " بما يضمن عناصر الالتقاء بين ثوابت " القيمة والقوة " فى كل عنصر من العناصر المميزة لهويتها ، وهى خريطة تعنى بـ :

- تأكيد أصالة وقيم التاريخ المصرى فى علاقتها بمكونات الثقافة المصرية ، ورؤية مصر فى معالجة القضايا والمشكلات العالمية .
- الكشف عن مسئوليات " إنسان مصر " صاحب أول حضارة على فجر الضمير الإنسانى .
- استجلاء معالم الرؤية الحقيقية والزווية التى يمكن أن نرى بها علاقة إنسان مصر بموقعها ومكانتها وسط إشكاليات التطور العالمى المعاصر .

وتحقيقاً لهذا الغرض ، فقد اشتملت الدراسة على خمسة محاور هى :

- البعد التاريخى : مصر فاتحة كتاب التاريخ ، وواسطة كتاب الجغرافيا .
- البعد السياسى : مصر ديناميكية التأثير على المستوى الإقليمى والعالمى .
- البعد الثقافى : مصر الهوية - والشخصية القومية .
- البعد الدينى:مصر المعقد الإيمانى فى فكر الهوية والإنجاز الحضارى فى فكر الحركة .
- المضامين التربوية فى شخصية مصر : رؤية مغايرة فى بناء الشخصية المصرية المعاصرة .

وقد تبين من العرض الفكرى فى محاور الدراسة :

1 - من حيث البعد التاريخى :

- أن مصر كانت " أول أمة " فى التاريخ القديم - نمت فى نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح ، وبعدها كانت أول دولة تظهر على مسرح العالم القديم بالمعنى السياسى ، ولم يمض قليل حتى كانت أعظم قوة سياسية فيه ، كانت أول إمبراطورية فى التاريخ حققت لنفسها نطاقاً ممتداً من السيطرة والنفوذ .

- " القيمة من الموقع - والقوة من الموضوع " هما طرفى معادلة شخصية مصر : موقع خطير يتطلب لتحقيقه وضمانه موضعا غنيا كفتا ، فإذا ما اجتمعا طفرت مصر كقوة إقليمية كبرى ، أما إذا قصر الثانى عن الأول / أو دون متطلباته ، وقعت مصر فريسة للقوى المعادية ، وبمعنى آخر : أن مكانتنا هي محصلة مكاننا وإمكانياتنا على حد سواء .
- أن أصالة التاريخ المصرى تتجلى فى كثير من مؤشرات السبق الحضارى فى كثير من المجالات ، وهناك كثير من الشواهد والأدلة التى تؤكد صدق المعنى : "مصر أم الحضارات - أول حضارة صنعها الإنسان " .
- أنه من عجائب القدر الذى تشرف به مصر ويشرف بمصر ، أن تكون " بيت العرب الأول " ورائدة التنمية ومفتاح الحركة العربية فى تفاعلاتها مع المتغيرات العالمية ، الأمر الذى يلقى على مصر مسئوليات مضاعفة فى صناعة القرار العربى . وليس دور زعامة مصر إلا ممارسة متواضعة صامتة ، وهو بهذا المعنى لا يمكن أن يكون تشريفا أو تخليدا ، بل هو تكليف وتقليد ، تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ .
- أن البعد التاريخى فى شخصية مصر يمثل نموذجا فريدا للقاء الإنسان المصرى مع الموقع ، وعلى ضوء الخبرة التاريخية لمصر تشكل دورها الإقليمى والعالمى ، ومن الثابت فى هذا كله :
 - شموخ الإنسان المصرى وإرادته الطموحة فى العمل والإنجاز .
 - أصالة قيم مصر فى استيعاب الوافد عليها وتمصيره ، وإعادة تصديره بروح مصر .
 - التمايز الفرد للغة الحوار بين الإنسان المصرى مع موقع مصر ومكانتها عبر التاريخ ، وهى اللغة الحاكمة لقيم العطاء فى الذات المصرية .
 - أن موقع مصر هو منحة من السماء لأهل الكنانة ، لوجوب الوفاء بالتزامات ومسئوليات هى من خصوصيات تكوين الوجدان المصرى فى علاقاته بالدين والإنسانية .
 - أن موقع مصر هو قيمة من الجغرافيا ، كان عوننا لمصر إذا تكامل مع موضعها ومكانتها ، وكان عوننا عليها إذا ضعفت المكانة عن مهام الموقع ، وما بين " العون والعوان " دروس مستفادة فى تربية الشخصية المصرية .

2 - من حيث البعد السياسى :

- أن مصر تعد مركز الثقل وقطب القوة فى العالم العربى ، مما حتم عليها بانتظام مسئولية الحماية والدفاع عن العروبة ، وهى من زاوية أخرى بثقلها العربى تقوم بدور الحوار والتأثير فى المجتمع العربى ، وهى فى نظر الآخر مفتاح المنطقة وجيروسكوب فاعليتها .
- أنه نظرا لطبيعة موقع مصر الجغرافى وإيماننا منها بمسئولياتها العربية ورسالتها الحضارية ، تحتم على مصر وبيانتظام " مسئولية الحماية والدفاع عن العروبة " إلى جانب دور القابض على التوازن ، وقد أعان الله مصر على تحمل أعبائها والوفاء بمسئولياتها ، وكانت دائما عند حسن ظن أشقائها العرب [منذ أن حفظت عليهم عروبتهم وإسلامهم وكيانهم ضد غزاة العصور الوسطى ، ومساندة حركات التحرير فى كثير من البلاد العربية ، إلى حرب الكرامة العربية / أكتوبر 1973] .
- تؤكد رؤى الفكر السياسى أن مصر كانت ومازالت دولة محورية ، ولها دور ريادى فى إطار حركة الأحداث العالمية ، إذ هى حالة فردية لدولة تملك وجها متفردا وحضورا سياسيا وثقافيا فائق الفعالية ، يمنحها مكانة عالمية متميزة ، فهناك يقينيات دامغة تبرز مكانة مصر العالمية :
 - منها ما يرتبط بطبيعة الموقع الجغرافى ، وما رسخته هذه الطبيعة من مخزون حضارى .
 - ومنها ما يشير إلى القدرات المعنوية للنظام السياسى المصرى فى التعامل مع الأحداث والمشكلات العالمية .
 - ومنا ما يرتبط بمكانة مصر فى سياسات الدول العظمى ، بوصفها دولة قاعدة / محورية ، بما لها من مقدرة عالية فى التأثير والفاعلية على المستوى الإقليمى والعالمى .
- وأن هناك توجه عالمى لطرح جديد للمنطقة يقوم على فكر سياسى مغاير لفكرة العروبة ، فى محاولة لإضعاف الإطار الفكرى والسياسى القائم على الانتماء العربى فى المنطقة العربية ، ومن ثم يكون الانتظار لإعلان وفاتها ، إلا أن ثمة احتمال لقدرة مصر والعرب على كفالة حد مناسب من التنسيق والعمل العربى المشترك من أجل حماية الأمن القومى العربى ودعم الوجود الحضارى للأمة العربية على مسرح السياسة العالمية .

- أن البحث في مستقبل مصر في القرن الحادى والعشرين يعد بمثابة قضية مصرية [حيث يوصف بأنه قرن الفاعلية أكثر من كونه قرنا للتوازنات] الأمر الذى يتطلب رؤية جديدة فى تربية " إنسان مصر " حيث إن الفاعلية تعنى القدرة على التأثير العميق فى جميع المجالات [يكون فيها العلم هو القاعدة والإبداع هو الوسيلة] وأن الكونية هى جوهر هذه الفاعلية [حيث يكون التمايز الحضارى هو المؤشر الأوفر حظا للتعبير عن الهوية والإعلاء من شأنها].

3 - من حيث البعد الثقافى :

- إن ثقافة مصر هى الركيزة الفكرية فى بنية المجتمع ووعى الأفراد ، ومنها تتشكل رؤية المجتمع لإشكالياته وطموحاته ، ومن ثم فإن اعتبارات هامة فى وصف ثقافة مصر تقتضى التأكيد على جذور الثقافة المصرية بما يبرز معنى الأصالة ، والتعرف على التيارات الفكرية فى مصر وانعكاساتها على الثقافة بما يبرز معنى المعاصرة ، وذلك لأننا نحتكم إلى المرجعية الثقافية لتحديد مسارات وزوايا التغيير - بما يمكننا من التمييز الموضوعى بين عدد من القضايا والإشكاليات التى تتعلق بمفهوم الأمن القومى .
- إن الحديث عن هوية مصر يعنى البحث عن صيغة جديدة لطبيعة العلاقة بين أيديولوجية الفكر وأطر الممارسة ، بما يمكننا من الكشف عن حجم المشاركة والفاعلية فى صناعة المستقبل تواملا مع عناصر القوة والتميز فى تاريخ مصر ، فالموقع الجغرافى لمصر قد جعل منها ملتقى الفكر الإنسانى وبؤرة انصهاره ، وهى كذلك همزة الوصل بين ثقافات العالم ، ولن تزيد الأيام دور مصر التاريخى فى حياة الإنسانية وفكرها وثقافتها إلا رسوخا وتمكينا وجلاء .
- إن للمعتقد الدينى أثر كبير فى إثراء الثقافة المصرية ، ولعل فى دراسة وقائع التاريخ منذ الفتح الإسلامى لمصر ما يشير بدلالة واضحة إلى أن " الوحدة الوطنية" تعد من المعالم المميزة لثقافة مصر ، وذلك بما يعبر عن معنى " ثقافة الانتماء لمصر " وأصالة جذورها فى نسيج الشخصية المصرية .
- أن الفكر المصرى فكر أصيل يعبر عن إرادة شعب صنع تاريخه وقادر على بناء مستقبله. وعلى الرغم من تمايز التيارات الفكرية فى مصر فى القرن العشرين ، إلا أن التربة المصرية كانت محك الاختبار ، حيث إن الوعى المصرى الكامن فى وجدان الأمة يختار من بين اتجاهات الفكر والثقافة ما يتفق مع حقيقة الذات المصرية وخصوصياتها المتميزة.
- إن الأمن القومى للمجتمع يعتمد بدرجة كبيرة على نضج الوعى الثقافى فى عقول ووجدان أبنائه. وهذه مهمة تربية بالدرجة الأولى ، الأمر الذى يتطلب ضرورة التمييز بين نمطين من أشكال الثقافة وهما : ثقافة الهوية وثقافة الإنماء والتنمية ، ففى حين أن الأولى تتعلق بخصوصيات المجتمع وميراثه الثقافى والحضارى ، فإن الثانية تتعلق بالأطر الفكرية الداعمة لأنماط سلوكية مأمولة لدعم قضايا التنمية، وفى حالة التوافق الكلى بين ثقافة الهوية وثقافة الإنماء والتنمية ، هنا يكون التمايز الحضارى بأسمى معانيه .

4 - من حيث البعد الدينى :

- إن عظيم عطاء الإنسان المصرى فى بناء حضارته كان تجسيدا واضحا لعلاقات قوية بين قيم الإيمان والوعى بمسئوليات الذات المصرية تجاه الوطن والتاريخ ، ومن ثم فإن أية محاولة لتحديد الجانب الدينى فى بناء حضارة مصر المعاصرة ، إنما يعنى خلل فى منظومة الثقافة والقيم التى شكلت وجدان الذات المصرية وعاشت بها ، لأننا فى هذه الحالة نكون قد فقدنا فى سلوكنا معنى الإرادة وأفقنا العمل بقيمته ، وذلك للفقر مرجعية التقدير ومقايسة الغايات .
- إن جذور التدين فى الشخصية المصرية تعبر عن أصالة الفطرة ونقائها ، فلم تكن شخصية مصر عابرة فى تاريخ الديانات - بل أن لشخصية مصر عظيم العطاء فى قبول الديانات ومعايشتها وزيادة الفهم والوعى للسلوك بمقتضى تعاليمها ، بل وكانت مصر منذ عهدا القديم مصدرا للإشعاع الدينى [كما تمثل ذلك فى عبادة الإغريق : سيرابيس] ، وقد وجدت المسيحية فى مصر المحضن الآمن من عصف الرومان ، وصارت مصر بعد الفتح الإسلامى حصن الإسلام المتين .
- أن القيم الدينية كانت ومازالت وستظل محور النسق القيمى فى المجتمع المصرى، ومن ثم كانت أهمية دعم المضامين التربوية لمكانة الدين فى الثقافة المصرية ، وهناك بعض الدروس المستفادة من تاريخ مصر ، وهو أن أمن مصر ومستقبلها مشروط بمعانى القوة ، وأن هذه القوة مهما اكتملت عناصرها ومقوماتها من التاريخ والاقتصاد والجند لا بد وأن تستكمل بقوة الإيمان ، تلك القوة التى تحدد وجهة مصر فى الوفاء بمسئولياتها العربية والإسلامية .

5 - من حيث البعد التربوي :

- إن البحث في الشخصية القومية هو ضرورة تربوية من أجل النظر إلى المستقبل واستقرار أساس الحضارة ، إذ أن معرفة معالم شخصيتنا يحفزنا أن نستعيدها قبل أن تغيب وقبل أن نفقد الطريق إلى المستقبل ، فالإنسان المصري هو الثروة الحقيقية لمجتمعه ، وضياع الشخصية الحضارية لهذا الإنسان تعنى فى الوقت ذاته تشويه لصورة مستقبله . فنحن لم نفقد الأصول الحضارية لهذه الشخصية ، ولكن هناك عوامل تنخر فى أسسها وفى بنائها ، وعلينا أن نشير الوعى بها مؤكدين على مسئولية الإنسان المصري كل مصري فى حمايتها .
 - إن التحولات العالمية قد ألقت على مصر بكثر من الإشكاليات، وهى (مصر) وإن كانت تحمل معها مقومات أصالتها الحضارية وتدرك مسئولياتها ، فهى تحاول الآن العبور إلى مستقبل أفضل يعبر عن ماهيتها ، الأمر الذى يحمل التربية مسئوليات مضاعفة لتأكيد أمن و ضمانات المواجهة مع الإشكاليات والتحولت العالمية المعاصرة بما يمكن مصر من استجلاء حقيقتها على المسرح الحضارى العالمى .
 - إن نظرة دقيقة لإشكاليات التربية فى مصر ، يتضح أنها تبدو كنتيجة حتمية للربحية الملحة والمتنامية فى التحديث لمسايرة العالم - وهذا توجه إيجابى ومشروع ، ولكنه حين الغفلة عن الأصول الداعمة لهوية مصر الحضارية وذاتيتها الثقافية ، يتحول الأمر فى كليته إلى " كارثة " - وهذه القضية تتعلق بداية بـ " النموذج / الرؤية Paradigm" الذى يعبر عن فكر التربية والأسبقيات الحاكمة للممارسة التعليمية فى علاقاتها ببناء " إنسان مصر " . إن ما نعنيه من هذا كله هو ما يتعلق بـ " رؤية التربية " حول قضايا : القيم ، والإنسان ، والمواطنة . إنها المحاولة التى نستطيع بها رد التربية إلى جذورها الأساسية التى تتعلق بمفهوم " الذاتية الثقافية والهوية الحضارية لمصر " ، ومن ثم يمكن النظر إلى ما تبقى من مشكلات التربية فى ضوء مؤشرات الجودة التعليمية .
 - إن محاولة للحديث عن " ركائز ومنطلقات الفلسفة التربوية فى مصر " تنتهى بشكل أو آخر إلى إثارة التساؤل حول " نموذج الإنسان المصري الذى تسعى التربية إلى إخراجة " ، إنه التأكيد على ضرورة البحث عن الغايات الكبرى للتربية فى مصر قبل البحث فى شكلها أو محتواها أو طرائقها أو سوى ذلك .
- وقد انتهت الدراسة ببعض التوصيات التى من شأنها تفعيل دور التربية فى بناء الشخصية المصرية ، استنادا إلى المعانى المرتبطة بشخصية مصر ومسئولياتها .